الفلسفة واليومي	**ابتكار اليومي: ميشال دو سارتو**
حصة 4: درسان	د. محمد شوقي الزين

الحديث عن اليومي هو استحضار الكيفية التي يُبدع فيها الإنسان شرطه الحاضر، عبر مختلف الابتكارات والاستعمالات. قدَّم ميشال دو سارتو في كتابه «**ابتكار اليومي**» (1980) قراءة حصيفة حول الأبعاد التداولية لليومي؛ وأشكال الاضطلاع بهذه المهمَّة فلسفياً وعلى صعيد العلوم الإنسانية.

استعاد ميشال دو سارتو مباحث عديدة من فلسفة هنري لوفيفر حول الحياة اليومية، لكنه قام بتعديلها وأقلمتها للمباحث التي اشتغل عليها والتي كان تُشكّل صُلب تفكيره الديني والفلسفي والسوسيولوجي، وعنيتُ بذلك «**التاريخ**» بالتفكير الابستمولوجي حول الحدث التاريخي وحول المهنة التاريخية نفسها؛ «**التصوف**» بالتفكير النقدي حول التعبير الصوفي وطريقة تنظيم الحقل الخطابي أو الألسني للظاهرة الروحية؛ «**اليومي**» بالتأمُّل العميق في الممارسات اليومية العادية التي تشمل التعبير اللغوي في التبادل الشفهي، فن الطبخ، فن السكن، القراءة، التجوُّل في المدينة، إلخ. دفع دو سارتو بالدراسات النقدية حول «اليومي» إلى مداها الفلسفي والاجتماعي وهذا ما سنلاحظه في هذه الحصة.

I

كيف قرأ ميشال دو سارتو اليومي؟ ما هي الإضافة التي أتى بها بالمقارنة مع الدراسات السابقة عليه أو المعاصرة له؟ أيُّ منهجٍ اقتفى مبادئه في معالجة اليومي؟ كتابه «**ابتكار اليومي**» في جزأين: الجزء الأول «فنون الأداء العملي» كتبه بمفرده؛ والجزء الثاني «السكن، الطبخ» دوَّنه بالاشتراك مع لوس جيار وبيير مايول؛ هو أحسن مدخل إلى قراءة طبيعة اليومي. تطرَّقنا في الحصة السابقة إلى ثنائية الاستراتيجية والتكتيكية التي اكتست عند لوفيفر أهمية كبرى في قراءة اليومي، حيث الاستراتيجية هي أزمنة الغليان الثوري والتأسيس العملي للعالم، والتكتيكية هي أزمنة الابتذال والرتابة أو الروتينية. استعاد دو سارتو هذه الثنائية، لكنه قام بقلبها أو عكس حدودها، حيث تدل الاستراتيجية عنده على ما هو صلب وصارم وسلطوي، وتدل التكتيكية على ما هو دينامي وخلاَّق.

لم تكن ثنائية الاستراتيجية-التكتيكية عند دو سارتو مجرَّد ثنائية تراتبية بين سلطة ومقاومة أو بين خشن وليّن، بل هي عنده ثابتة بشرية (constante) تقوم على فكرة «الثابت» و«المتحوّل» وقابلة للتعميم على كل مجالات الحياة اليومية. 1. مثلاً، في الهندسة المعمارية (architecture) «الثابت» هو المنزل بشكله والمواد المركَّب منها و«المتحوّل» هو جُملة النشاطات التي يقوم بها الأفراد في المنزل، وجُملة

الممارسات التي يؤدُّونها يومياً؛ 2. وفي المجال الحَضَري (urbanisme) «الثابت» هو المدينة بعماراتها وشوارعها و«المتحوّل» هم الأفراد الذين يتحرَّكون بداخلها عبر التنقُّل والمشي؛ 3. وفي المجال اللغوي (langage)، «الثابت» هو اللغة بأبجديتها ومعجمها أي بالمنطوقات المتداولة (énoncés)، و«المتحوّل» هو الممارسات اللغوية في السياق (énonciations). ثنائية الاستراتيجية-التكتيكية هي إذن «مفهوم إجرائي» (concept opératoire) كفيل بقراءة خريطة اليومي بين المعطيات الثابتة والبناءات المضافة.

كيف يُحدّد ميشال دو سارتو طبيعة اليومي؟ كيف يُعرّفه ويُبيّن رهاناته؟ تُبرز عبارة مقتضبة ومجازية حقيقة اليومي القائم على نوعٍ من التحايُل على الثوابت بإزاحتها وتحريكها: «**يُبتكَر اليومي بألف طريقة في الاصطياد**»[1]. الكلمة «اصطياد» (braconnage) هي الصيد في الأوقات المحظورة وفي الأماكن الممنوعة. فهي نوع من القرصنة. يُشبّه دو سارتو طبيعة اليومي بهذا الاصطياد في الأماكن المسيَّجة للاستراتيجيات الموضوعة في المجتمع. يُصبح «اليومي» عنده رديف «التكتيكية». اليومي زاخر بالأفعال والممارسات التي يتمُّ ابتكارها وتوجيهها في كل لحظة، وبحكم حَرَكيتها وديناميتها، فهي تكتيكات تعمل على الإفلات من سطوة الاستراتيجيات الضخمة والثقيلة: الإدارة، المؤسسة التربوية، القانون الصارم، إلخ. ما يقوم به الأفراد يومياً هو محاولة التحايُل على الطابع السكوني لليومي، بنفخ الحركة فيه وتحريك بنياته الثابتة.

العامل الأساس الذي من شأنه أن يُحرّك الثابت من الداخل أو يقاومه وجهاً لوجه، هو «**الاستعمال**» (usage, use). الاستعمال هو إزاحة الثابت وإدخال الحركة فيه: مثلاً، استعمال المكان الحَضَري (المدينة) بالتنقُّل، واستعمال المكان الهندسي (المنزل) بتنظيم الداخل (الغُرف، الأثاث...)، واستعمال أبجدية اللغة لتركيب منطوقات تُستعمَل في سياق الحديث وتصبح ممارسات لغوية لها علاقة بإطار عملي معيَّن. يستعمل دو سارتو «الاستعمال» بديلاً عن «الاستهلاك» الذي يُفيد نوع من السلبية أو الانفعالية الرتيبة:

> «الإنتاج العقلاني، التوسُّعي والمركزي، الصاخب والخارق، يُقابله إنتاج آخر، يُنعت بالاستهلاك: فهو محتال ومتشظي، لكنه ينساب في كل مكان، صامت ويكاد لا يُرى، لأنه لا يتميَّز بمنتوجات خاصة ولكن بأساليب في استخدام المنتجات أو المواد التي يفرضها نظام اقتصادي مسيطر»[2].

يريد دو سارتو بالاستعمال مجاوزة التصوُّر السلبي حول أفراد خاضعين لمنطق الإنتاج ويكتفون باستهلاكه. الرهان هو تبيان أن الاستعمال هو تكتيكية في التحايُل على الإنتاج، بالتصرُّف به بأشكال مختلفة ومتنوّعة. لا يعرف صاحب الإنتاج مآل المنتجات التي فبركها. فهي بين أيادي الأفراد يتصرَّفون بها

[1] Michel de Certeau, *L'Invention du quotidien I*, Arts de faire, Paris, Gallimard/Folio, 1999, réédition 2004, p. xxxvi.
[2] Ibid., p. xxxvii.

كيفما يشاؤون، وبالاستعمال يُعطون للإنتاج حياةً ثانيةً بعد التخطيطات والميزانيات وصخب الآلات. عندما يستعمل الفاعل الاجتماعي المنظومة التي يتواجد فيها (مثلاً المنظومة الاقتصادية مثل قانون الإنتاج)، المفروضة عليها، فهو يُعدّلها بمجرَّد أنه يستعملها. يقوم بتكييفها مع شرطه التداولي. في جوابه على أسئلة لوي كيري، يقول دو سارتو:

> «إنَّ الممارسات المدروسة في [كتابي] **ابتكار الحياة اليومية** هي ما ندعوه في اللسان الإنجليزي بالمفردة "يوز" (use). لاعتبارات تقنية خاصة باللغة الفرنسية، مصطلح "يوزاج" (usage) له دلالة وضعية، عندما نقول الاستعمال [يقصد في الفرنسية]، فإننا نستحضر الشكل الوضعي للسلوك، بينما الرهان هو العودة إلى ما أثار اهتمام المنطق الإنجليزي منذ مور، بمعنى استعمال اللغة»[5].

يميّز جلبرت رايل بين الاستعمال، بمعنى الأداء الفعلي لشيء ما، وهو ما يسمّيه «يوز» (use) وبين الأعراف أو التقاليد، التي ينعتها بالعادات (usages)[6]. يقترب الـ«يوز» ممَّا يسميه فتغنشتاين الاستخدام (Verwendung)، وتقترب العادات أو الاستعمالات (Gebrauch) ممَّا يسميه فتغنشتاين «أشكال الحياة» (Lebensform)، بمعنى اللوحة الخلفية التي تتبدَّى فيها جُملة الوقائع الاجتماعية والممارسات اليومية. ما يقصده دو سارتو هو الاستعمال العادي الذي تدل عليه مفردة «يوز»، وليس العادات أو الأعراف التي تشترط الممارسات بوصفها المرجعية الثقافية أو العُرفية. لا يهمل دو سارتو المرجعية التي تشتغل فيها الممارسات أو التصوُّرات التي تتجاوب معها هذه الممارسات، لكنه يعطي الأولوية والصدارة للاستعمالات في خصوصيتها العادية واللغوية.

II

كيف استثمر ميشال دو سارتو الاستعمال في قراءة الممارسات اليومية؟ انطلاقاً من أيَّة نماذج استطاع أن يقدّم إطاراً وصفياً للاستعمال؟ انطلق دو سارتو من ثنائية هي عريقة بقدر ماهي تثويرية في الدراسات التداولية وتخصُّ ثنائية «اللغة» و«الكلام»[14]. هناك «نسق» ثابت بماديته اللغوية أو بهيكله الحرفي والقاعدي (أبجدية، أحكام نحوية، تقعيد معجمي...) و«أداء» متحرّك ومرن يستعمل اللغة في

---

[5] Louis Quéré, « Les sciences sociales face à la rationalité des pratiques quotidiennes : questions à Michel de Certeau », in *Problèmes d'épistémologies en sciences sociales, II- Sociologie, pratique et politique*, Paris, CEMS (EHESS, CNRS), 1981, p. 84-85.

[6] G. Ryle, « Use, Usage and Meaning », *Proceedings of Aristotelian Society*, vol. 35, 1961, p. 223-242; « Ordinary Language », *Philosophical Review*, 62, 1953, p. 167-186: «Much more insidious than this confusion between the way of operating with something and its usefulness, is the confusion between a "use", i.e., a way of operating with something, and a "usage" […], a custom, practice, fashion or vogue» (p. 173).

[14] هذا الفارق أشار إليه، على وجه الخصوص فردينان دو سوسور في **محاضرات في الألسنية العامة** (باريس، 1916)؛ ونجد عند هيمسليف فارقاً آخر في **محاولات في الألسنية** (كوبنهاغن، 1959)، حيث يفرّق بين النسق والاستعمال يتوسّطهما المعيار. إذ **النسق** هو حقيقة اللغة الصورية، و**المعيار** هو ما يمكن تمييزه من علامات في تجليّات هذه الحقيقة، و**الاستعمال** هو الأداء الفعلي تصبح بموجبه الحقيقة اللغوية وقائع ألسنية.

سياق معيَّن وظرف محدَّد وهو الكلام في المحادثات اليومية. هناك، إذا جاز التعبير، «الرصيد» (النسق اللغوي) و«الصفقات» (الأداء الكلامي)، أي **وجود قبلي** لعلامات مقنَّنة نحوياً ومعجمياً بوصفها الرأسمال، و**أداء بعدي** يتلخَّص في الاستعمال اليومي لعبارات شائعة بمعنى الصفقات. بالموازاة مع هذا التمييز بين اللغة والكلام (سوسور)، أو بين النسق والاستعمال (هيمسليف)، أو بين الرصيد والصفقات (رايل)، يستثمر دو سارتو التمييز الذي أقامه إميل بنفنيست بين المنطوق (énoncé) وأداء التعبير (énonciation).

بالقياس مع هذا النموذج اللغوي، يبتكر دو سارتو ثنائيات ستكون لها صدى كبير في الدراسات التداولية المعاصرة، خصوصاً في بُعدها اليومي. أخصُّ بالذكر ثنائية **«الاستراتيجية والتكتيكية»** (إزاحة المفهوم من تربته العسكرية نحو حقوله الاجتماعية)، التي تنحدر منها ثنائيات أخرى مثل **«المكان والموقع»** (قراءة في الفضاء الهندسي والمعماري) و**«الإنتاج والاستهلاك»** (قراءة في الفضاء الاقتصادي والتواصلي). تتبدَّى **«الاستراتيجية»** نسقاً من الأعراف أو القواعد أو الإكراهات، وهي تعادل «نسق اللغة» في الدراسات الألسنية؛ وتتجلّى **«التكتيكية»** استعمالاً فعلياً في ظروف أو ملابسات معيَّنة، وهي تعادل «أداء التعبير». يتبدَّى الاستعمال همزة وصل/فصل بين الاستراتيجية والتكتيكية، بين ما له **خاصية الثبوت والصلابة والقوَّة** (يضع دو سارتو في هذه الخانة المؤسَّسات التي شيَّدتها الحداثة والعقلانية المعاصرة: المؤسَّسات السياسية والقضائية والعسكرية والاقتصادية والعلمية) وبين ما له **خاصية التحوُّل والرخاوة والانسياب** (يضع دو سارتو في هذا الجانب كل ما هو خارج المؤسَّسة ذات الضوابط والأحكام الصارمة: البداوة أمام الحاضرة، الشفهية أمام الكتابة...).

> «العديد من الممارسات اليومية (التعبير أو القراءة أو التجوّل أو التسوُّق أو الطبخ، إلخ) ذات نمط تكتيكي. على العموم الكثير من "أشكال الأداء": نجاح الضعيف ضدَّ الأقوى (الجبابرة أو المرض أو عنف الأشياء أو النظام، إلخ)، خدائع، فنون الانقلابات، مهارات "الصيَّادين"، تنقّلات مناوراتية، تصنُّعات متعدَّدة الأشكال، لقاءات مبهجة، شاعرية بقدر ما هي حربية. تنتمي هذه الكفاءات التنفيذية إلى معارف عريقة. يطلق عليها الإغريق اسم الميتيس[17]. لكن

[17] تعني **الميتيس** (mètis) في الإغريقية الذكاء أو الحيلة. كان الغالب في التفكير الإغريقي العريق (الفلاسفة السابقون على سقراط مثل هيرقليطس) هو ربط العقل بالنار («العالم نار حيّة، تشتعل بقدر وتخبو بقدر»، كان يقول هيرقليطس)، لأنّ العالم هو عقل والإله هو عقل، وكلاها نار حيّة تنساب بين الخلائق كما أقرّ بذلك الرواقيون. في اللسان العربي، لا نجد صعوبة في الربط بين العقل والنار الحيّة، لأن الذكاء يتقاطع في جذره اللغوي مع الحرارة عندما نقول "أذكى النار" إذا أشعلها ووهّجها. طالع مثلا:

Marcel Detienne et Jean-Pierre Vernant, *Les ruses de la raison. La mètis des Grecs*, Paris, Flammarion, 1993, coll. « Champs ».

ترجع هذه المعارف إلى أزمنة أكثر عراقة، إلى العقول السحيقة مع حِيل أو تصنُّعات النباتات أو الأسماك. من أعمق المحيطات إلى شوارع المدن الضخمة، تُشكّل التكتيكات نوع من الاستمرارية»[18].

اعتزل دو سارتو الدراسات المعاصرة حول التصوُّرات أو السلوكيات ليركّز اهتمامه على واقعية الاستعمال وقيمته التداولية. لأن في معظم الأمثلة التي أوردها بهذا الشأن (المشاهد أمام التلفزة، السائر في المكان الحَضَري، المستهلك للمنتوج، القارئ للحكايات أو الأخبار في الصُحُف...)، انصبَّ الاهتمام على دراسة نفسانيات المشاهد أو المستهلك أو القارئ أو المتجوّل (ما يدركه أو يشعر به، ما يعرفه في مخيّلته أو يتنكّر له، إلخ)، أو دراسة سلوكياته (رد الفعل، الانفعال الناتج عنه بين القبول أو الرفض، إلخ). لا ريب في أن هذه الدراسات التي تتأرجح بين النفسانيات والسلوكيات كانت لها نتائج إيديولوجية خطيرة: سجن الفاعل الاجتماعي في أسر الانفعال سواء على سبيل القبول المحض أو على سبيل الرفض والثوران (الدراسات الماركسية). الرهان، حسب دو سارتو، معالجة ما يصنعه الفاعل الاجتماعي بالصور التي يشاهدها، أو المنتجات التي يستهلكها، أو الأمكنة التي يجوبها، أو الروايات التي يقرأها.

«عدَّة أعمال، جديَّة وملحوظة بلا شك، تهتمُّ بدراسة إمَّا التمثُّلات وإمَّا السلوكيات في مجتمعٍ معيَّنٍ. بفضل الوقوف على هذه المواضيع الإجتماعية، من الممكن والواجب أيضاً اكتشاف الاستعمال الذي تؤدِّيه الجماعات أو الأفراد. مثلاً، تحليل الصور المنشورة عبر التلفزة (التمثُّلات) والأوقات التي تُقضَى أمام الشاشة (السلوك)، ينبغي أن تُكمَّل بدراسة حول ما "يصنعه" المستهلِك الثقافي خلال هذه الساعات وما يفعله بهذه الصور، الأمر نفسه يتعلّق باستعمال المكان الحَضَري أو المواد المشترية من السوق المركزي أو الحكايات والقصص التي توزّعها الجريدة»[19].

هناك اختلاف بين «ما يقوم به» الفاعل الاجتماعي، وما «يقوله عنه» الخطاب العلمي والنظري. لأن ما يبتكره الخطاب من مقولات أو مفاهيم هو نصوص تقوم بتجميد الفعل البشري في قوالب لغوية ومفهومية، وتعميمه على الأزمنة والأمكنة. بينما يعوّل دو سارتو على مقاربة وصفية وتداولية لا تأخذ في الحسبان ما ينسجه الخطاب حول الممارسات (يبقى هذا الخطاب مجرَّد رؤية نظرية، ضرورية بلا شك لكنها غير كافية)، لكن ما تبرزه الممارسات من دلالات ممكنة، أي من استعمالات تراعي الظرف والسياق

[18] Michel de Certeau, *L'invention du quotidien I*, p. XLVII.
[19] Ibid., p. XXXVII

والفاعل والعلاقة، أي أهمَّ العناصر التداولية في مقاربة الفعل البشري. لكن الأسئلة الممكن طرحها في هذا الشأن: ماذا يفعل المشاهد بالصور المعروضة عليه؟ ماذا يصنع القارئ بالروايات أمام عينيه؟ بتعبير آخر، كيف يتبدَّى الاستعمال بعداً تداولياً في أداء الممارسات؟

III

يصبغ دو سارتو على القراءة الخصائص التداولية نفسها التي أضفاها على الاستهلاك بوصفه إنتاجاً فرعياً أو ثانوياً. فهي، أي القراءة، «إنتاج صامت»، لأن ما تنتجه تستهلكه على التوّ، ويتبدَّى إنتاجها في إشارات أو حركات تبدو للوهلة الأولى وكأنها تافهة: انعطاف عبر الصفحات في شكل ذهاب وإياب، سفر الرؤية عبر تضاريس النص لترى فيه ما لا يراه بنفسه، التخلّي عن دلالة بتجلّي دلالة أخرى يتحلّى الذهن بنقيضها، إلخ. القراءة هي تكتيكية تجوب الفضاء الإستراتيجي للكتابة. يكمن نشاطها في جملة الحركات التي تؤدِّيها (تمتمة، وثبة بالعين، قفزة على الصفحات) والمداخل التي تنساب إليها والمخارج التي تفرُّ منها، والمعارج التي تسري فيها، والمنازل التي تأوي إليها. تقوم القراءة بتخليد أسفارها عبر الذاكرة، لأن الذاكرة ترتبط بالزمن، خلافاً للكتابة التي تتعلّق بالمكان. بتعبير آخر، تحمل القراءة أحلامها معها في الديار الغريبة للكتابة.

هذا شأن السائر في المدينة الذي يتجوَّل بحركة مرنة ومفتوحة على الإمكان والخيال وسط نظام صلب ومُقنَّن كما يُمثّله التنظيم الحَضَري: شوارع مُعلَّمة بمنازل مُرقَّمة، وإشارات المرور المنسَّقة بالضوء الأخضر (الجواز بالمرور) والأحمر (الأمر بالتوقُّف)، والممشى الذي يَعْبُره الراجلون، وكل المعالم التي تنظّم الحركة. يماثل هذا المشهد في المدينة ما نجده في التداولية، حيث المدينة هي على غرار النسق اللغوي الثابت والفجّ. الحركة داخل المدينة هي على شاكلة أداء التعبير في ظروف وأمكنة محدَّدة، وبفعل ناطق له علاقة تعاقد مع الناطقين الذين يُخاطبهم. كذلك السائر في المدينة هو على غرار المتكلّم باللغة في سياق معيَّن. إذا كانت اللغة تتحقَّق بفعل التعبير حسب المعطيات التداولية، فإنَّ المدينة تتحرَّك بفعل الأحداث التي تعجُّ أطرافها (مسيرات، هتافات، محادثات). المدينة هي مجرَّد نسيج عُمراني على غرار اللغة التي هي مجرَّد نسيج من العلامات.

جاء التماثل بين السير وفعل الأداء لينبّه إلى خاصيَّة تشترك فيها اللغة والمدينة. كلاهما عبارة عن «نسيج»: النسيج العُمراني بالنسبة للحاضرة، والنسيج الخطابي بالنسبة للغة. يحيل النص في الاشتقاق

اللغوي أساساً إلى «النسيج»[28] وكل ما له علاقة بالحياكة والحكاية، إذا جاز لنا استعمال "القلب اللغوي" بمفهوم جلال الدين السيوطي في «**المزهر في علوم اللغة وأنواعها**»، في المفردتين جَبَذَ وجَذَبَ. هناك في المدينة أيضاً «**حياكة**» في الروابط المعمارية والاجتماعية، و«**حكاية**» في التواريخ الفردية والجماعية. (أنظر مخطط اليومي عند دو سارتو في الصفحة الموالية).

[28] Cf. Denis Thouard, « Les conceptions du texte : un conflit d'interprétation », in : Christian Berner et Denis Thouard (éd.), *Sens et interprétation. Pour une introduction à l'herméneutique*, Presses universitaires du Septentrion, 2008, p. 99-100 ; Roland Barthes, *Le plaisir du texte*, Paris, Seuil, 1973, p. 100

مخطط اليومي عند ميشال دو سارتو